

الإبداع .. أيام زمان

إن لم تكذبني الذاكرة فقد صدر في يونيو 1969م من وزارة الإعلام بدمج لجنتي "نصوص الأغاني" و "لجنة الألحان" في لجنة واحدة تسمى لجنة النصوص والألحان بالإذاعة والتلفزيون .. كانت لجنة النصوص تضم الأساتذة الكبار ابراهيم العبادي وعمر البنا ومحمد المهدي المجذوب وحسن نجيلة وشخصي وتضم لجنة الألحان الموسيقار اسماعيل عبد المعين وأحمد مرجان وبرعى محمد دفع الله والعاقب محمد حسن وآخرين.

وكان هذا القرار عقب ضجة صحيفة كبرى أثارها قرار لجنة النصوص بوقف بث أغنية الفنان الراحل صالح الضي "يا جميل يا حلو" والتي أذيعت دون موافقة لجنة النصوص .. والتي تحفظت عن بعض كلمات الأغنية وطلبت تغييرها. وفي جلسة استثنائية مع المطرب دافع بأن هذه الأغنية استمع إليها الجمهور ولاقت رواجاً منقطع النظير وكتب عنها النقاد في الصحافة فكيف ترفض .. وتجدر الإشارة إلى أنه في ذلك الزمان كان يحظر على أى فنان ان يقدم من مايكرفون الإذاعة أو التلفزيون أو حفل عام أي نص غنائي لم تتم إجازته من لجنة النصوص .. كنص سفرى .. ومن لجنة الألحان .. كأداء فني وأن لا يتقدم أى فنان بألحان أو أغنيات من أعماله أو الآخرين قبل اجازته كصوت من لجنة "الأصوات الجديدة". ولعل هذا ما جعل كثير من المبدعين ينفجون في المحميات الفنية خارج دور البث الإعلامى قبل أن يصعدوا الى المايكرفون بترخيص رسمى وعليك أن تقيس كم عدد الأصوات التى تغنى اليوم وتغرد خارج السرب.

عود على بدء .. بعد تكوين اللجنة الجديدة بكامل عضويتها والتي كانت تستمع الى العمل الفنى فى نهاية حالة اكتماله وفي صورته النهائية ووجدت فى بعض الفنانين من يرفض الوقوف أمام اللجنة للحكم على "الحن" .. ويعتبره تقليلاً من شأنه .. وعلق الأستاذ حسن نجيلة: "نحتاج إلى يافطه أمام الباب يكتب عليها إرضاء الناس غاية لا تدرك" .. وعليك أن تقيس كم عدد الذين يقدمون أغانيهم على الهواء مباشرة بعبارة "الجديد من المفاجآت"...

وكان الوصول إلى مايكرفون الإذاعة حلماً يراود أخيلة المبدعين .. فى شتى صنوف الفنون رغم شح العدد .. كما .. وكيفاً آنذاك ..

إذكر أن صديقي وقريبي الفنان المتميز على اللحو .. بعد حضوره من شندى كان "فنان العائلة" .. ويشهد له الجميع بقوة الصوت .. وحلاوة الأداء .. وميزة التطريب ورغم أنني كنت عضواً فى اللجنة المذكورة التجانى حاج موسى .. ومحمد شريف .. والطنقى وتربطني علاقات متميزة بالموسيقار الراحل برعى محمد دفع الله أقول رغم هذا لم يكن مشواره الفنى سهلاً فى اجتياز اختبار الأصوات الجديدة .. وظل فترة يغنى خارج دائرة الضوء حتى دخل الإذاعة من اوسع أبوابها .. وتشاهد الآن كيف أصبح أحد ملوك الطرب على امتداد خريطة الفن السوداني.

واذكر أن الفنان المبدع والنغم الفريد الطيب عبدالله كان قد جاء من شندى مع فرقة الشمالية حيث كان يعمل فى معهد .. وأذهل الجمهور بالعاصمة وتركهم فى حالة ذهول .. وظل له موقعه وفى مرة طلبت من الأستاذ الصحفى شريف طمبل أن أكتب فى جريدة "الثورة" فى الصفحة الفنية وكتبت مقالاً طويلاً عن الطيب عبدالله وناشدت وزير الإعلام الراحل طلعت فريد أن يستدعيه ويوفر له فرصة الإلتحاق بالإذاعة .. ولم يكن تربطني بالفنان الطيب عبدالله حلاوة صوته وروعة أدائه ورقة طبعه وصفاء حنجرته الذهبية حتى إذا ما جاء إلى

الخرطوم كأمن أقرب الناس إلى النفس صديقاً .. ومطرباً .. وفرداً من الأسرة الكبيرة فى السراء .. والضراء .. وقد كان أكبر من طموح الفن قريباً ونائباً حتى كتابة هذه السطور ..

أذكر أننى كنت أتحدث مرة مع الأديب الراحل المقيم عمر حاج موسى .. وقد كان موسوعة فى الآداب والفنون وكان قائد سلاح الإشارة ويصدر مجلة الإشارة مع نخبة من أفلام متميزة ومنتعاة من العسكريين الأدباء والشعراء .. وكنت أشاركهم كتابه فيها .. تكلمنا عن الشاعر الحلنقى .. وقد كان يرسل قصائده الى مجلة "هنا أم درمان" التى يرأس هيئة تحريرها الفنان المبدع الراحل المقيم محمد الجديع .. وكلفني مرة على بالإشراف على الصفحة الفنية فى الستينات.

وكتبت رداً على قصيدة للشاعر الحلنقى أقول: لو قدر للحلنقى أن يدخل الخرطوم فسوف يغزوا الوسط الفنى .. ويحتل الإذاعة والتلفزيون دون إراقة قطرة دم .. من قاموس الفكر الإنقلابى الذى كان يسيطر على الشباب .. حيث كانت كل الانقلابات تدخل من بوابة الإذاعة والتلفزيون قبل إذاعة البيان رقم واحد. وقد دخل الحلنقى الخرطوم وسيطر على القلب النابض فى جسد الحركة الفنية وضخ الدم فى عروق كثير من الفنانين بعفوية .. ومصداقية .. وحنية ما زالت تتدفق مثل قطرات الندى على زهرات الصباح .. ومازال يثمر مثل شجرة العطاء.

عود على بدء... إحدى أمسيات العمر .. ونحن نحتفل بقران إبنى الأكبر فى أحد أندية أحد فنادق الخرطوم .. كان نجم الحفل الأول كالعادة .. صديق العمر .. المطرب الأسطورة عثمان حسين .. وهو الفأل الحسن الذى لا تكتمل فرحة إلا به .. ولا يفتح مجلس إلا بوجوده .. يشاركه أحد فنانى الشباب .. تواصل أجيال .. وكان الثانى يغنى أغنية "يا زهرة الروض الظليل" وأغانى أخرى .. من الحقيية .. ذلك المعين الذى لا ينضب .. والمدرسة التى لا يمل منهاجها كل المتدربين فى الساحة الفنية .. والمتعطين إلى ترويض الحاسة الفنية للجماهير .. وفوجئت به فى صخب الإيقاع الشديد يناجى محبوبته "أنا فى الثريا .. وأنت فى الثرى" .. ومثلما ضاعت جغرافيا المكان بين الأرض والسماء تاه الفنان فى أرجوحة الزمان الموسيقى .. وعندما انتهت الوصلة الغنائية جلست الى جانبه مشجعاً .. ومهنئاً .. ومجدداً الترحيب به قلت له: "من كان منكم فى الأرض ومن كان منكم فى السماء" .. فقال: "يا عمى الجمهور ما جايب خبر ونحن نخفى خلف هذه الآلات الموسيقية" .. فقلت فى نفسى: "ليل أيام زمان " ورحم الله أعضاء لجنة النصوص وأنزل عليهم شبابى رحمة فى قبورهم المظلمة فى تلك الليلة المغمرة.

عود على بدء ... أرجو ألا يخطر على بال القارئ أننى أزرع اليأس فى نفوس الشباب. أو أتندر عليهم أو أمارس الرثاء الذاتى فى قلب المآثم .. ولكنه جزء من التاريخ .. والتاريخ المعاصر .. ورسالة الأحياء من الجيل الماضى التواصل من الجيل الحاضر .. لا أحد يملك أن يقف فى وجه تيار الجديد ولا اكتسح ودمر بنيانه الفكرى ولكننا نأخذ من دروس الماضى عبرة بعناء منهاج الحاضر .. نعرف أن الحرص على الإبداع .. لا يكون لا بتوفير شروط الإبداع .. ولهذه معطيات لابد أن نسعى نستأصلها من خلال النموذج والقوة لماذا ظلت الحقيية ينبوعاً ثراً يقطف منه كل الأجيال ولم يخف .. لماذا ظل الجيل المعاصر .. مصدر إلهام .. وشعلة ظلام للسائرين فى ليالى الحاضر المخنوق بلهات المنافسة .. والمتوجع من سرعة ايقاع العصر .. ولا مجال للبحث والتفتيح .. أو الإجابة والتجويد أو الصبر على المكاره .. حتى تتضح ندرة الإبداع .. ولذلك يذهب الزبد خفاء ويبقى ما ينفع الناس.

وعندما نقول أيام زمان ليس خصما على الآن .. لا فى الزمان ولا فى المكان ولكن خوفا من النسيان .. ومن نسى ماضيه تاه والذكرى تنفع المؤمنين قال تعالى: " وذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر". صدق الله العظيم.

ولنا عودة بأذن الله...

دكتور الزين عباس عمارة - أبو ظبى